الخبر المثير

قصة

بقلم : محمد القرش

في لهفة تناولت الجريدة من بائع الصحف .. أسرعت خاطفة نظرة على العنوان الاحمر الضخم المثير .. كان أمل كبيرا في أن أجد العنوان الذي أتمنيه .. سأبتسم عيناي على بقية عناوين الصفحة الأولى .. الأمل الذي يملأ جوانحي يتسرب قطرة فقطرة وأنا أكاد أصل لآخر الصفحة .. مع ذلك لا يزال قلبي يخفق ببقية من أمل .. خطر لي ان الخبر منشور في الداخل .. وفي صفحة كاملة على الأقل .. هدأ روعي بعض الشيء .. لقد قضيت الليل بطوله أتجول بوجه هذه الصفحة .. كدت أقلب الصفحة الأولى حينما وقعت أنظاري على الخبر .. في آخر العمود الأخير .. بحروف صغيرة وفي سطور قلائل .. مع ذلك لمعت عيناي وأسرعت بصماتي .. نظراتي تجري على السطور بسرعة .. أمل خفيف يراودني ان اجد بقية الخبر منشورا في الداخل .. احتضر أملي وأنا أصل لآخر كلمة .. دهشة شديدة استولت علي وانتابتني خيبة أمل مريرة .. هذا الحدث الذي توقعت له صفحة كاملة .. لا يحظى الا بهذه السطور النافهة والفرصة التي انتظرتها سنوات طويلة من عمري ما أتيحت لي حتى تعمدوا أن يتجاهلوني كأي شخص نكرة وكأني لم افعل شيئا يشار اليه بنان الفخر .. كنت دائما احلم بعمل يطول برغم الناس على تقديري والامح في عيونهم نظرات الاعجاب .. في صباي طالما تمنيت أن تشتعل النيران في منزلنا .. ويتأجج اللهب عنيفا مرعبا .. ويصير رجال الاطفاء عن اقتحامه .. وكل أهالي الحي متجمعون يراقبون النيران .. ثم اندفع من بينهم كأحد أبطال الأساطير واقتحم الأتون المشتعل .. لأنقذها .. بين الحيران .. وأحملها بين أحضاني واعود بها .. ويحملني القوم على أكتافهم وهتافات الجماهير تشق عنان السماء .. وظل نفس الحلم يراودني أعواما عديدة وان اتخذ صورا أخرى ..

وحققت حلمي .. والفرحة التي رتعت بين جوانحي لا توصف .. ولكنها والأسفاه لم تكتمل .. وأنتم السبب .. في شبه اجماع حقير بينكم أجمعتم على ان تحرموني من اكليل المجد لأنكم قساة ظالمة .. هل تتعجبون من اتهامي لكم ؟ .. انظروا بي الجنون لأني أتهمكم دون معرفة ؟ .. انني أعرفكم واحدا واحدا وان كنتم لا تعرفوني .. وسأثبت لكم صحة اتهامي وخطأ ظنونكم .. والآن لعل بكم فضولا لأن تعرفوا

ما حدث .. حسنا سأرويه لكم .. وان كان شعوري بالغيظ منكم لسكوتكم الجميل يطغى على مشاعري الأخرى .. حتى رهوى لما حدث .

سيارة الأتوبيس رقم ٢٣ منطلقة بأقصى سرعتها كالعادة مزدحمة تماما بالركاب .. فجأة صاح أحد ركاب الدرجة الأولى بفرع السائق مات .

وقبلة من الذعر انفجرت بين الركاب .. بلا وعي اندفع ركاب الدرجة الأولى في جنون متكاثرين على المقعد الموصل بين الدرجتين .. كنت في هذه اللحظة أهم باعطاء أحد الركاب نصيحة بقوده حينما هرع الراكب في صلع ثم دفعني في عنف دون أن يبطر الباقي منفلتا صوب آخر العربة .. ولولا أن جلست مكانه بسرعة لجرفني تيار الراكبين الفارين من مقدمة العربة .. دلفت الى الدرجة الأولى .. كانت المقاعد خالية تماما .. وقعت أبصاري على الأسطى «شاي» وقد التفت رأسه على عجلة القيادة وتهدلت ذراعه اليسرى بجواره متأرجحة مع حركة العربة .. والسيارة تهدر كوحش انفلت من عقاله وأضواء الطريق تلمع .. وأمامنا وبجوارنا العربات منطلقة كسيل جارف .. من بعيد لمحت اشارة المرور الخضراء تتحول الى اللون الأصفر وتوشك أن تصبح حمراء .. والعربات أمامنا تتمهل لتقف .. الاصطدام الرهيب على وشك أن يحدث حتما .. ماذا أفعل ؟ .. انني لا أعرف القيادة ولا فائدة من الاستنجاد بأحد الركاب فلو كان أحدهم يعرف القيادة لما انتظر حتى الآن .. خطر لي أن أقفز من السيارة .. نحيت عن خواطري بسرعة .. ودون ما تفكير كنت بجوار الأسطى شاي .. دفعته بجسدي بأحمق اليسار ويداي على عجلة القيادة واحتللت مكانه .. وكانت أول مرة في حياتي أجلس على مقعد قيادة سيارة سائرة .. لا تسألوني كيف تمكنت من ايقافها .. وعلى بعد سنتيمترات قلائل من مؤخرات العربات الواقفة أمام الاشارة الحمراء .. أنا نفسي لا أعلم .. كانت قطرات العرق الباردة تنبع من كل مسام جسدي .. شعور بالانهيار والدهشة يسيطران علي .. كيف أمكنني ذلك ؟ .. لعل لحظات الفراغ التي أجتلستها واقف فيها بجوار السائق لأحتسي قدحا من الشاي او أدخن سيجارة أو لأثرثر معه .. والتي كنتم تصيقون بها وتتطرون لها شررا .. هي السبب .. كنت أرقب ما يفعله بلا وعي مني .. وفعلت ما يفعله بلا وعي أيضا .. ربما كنت أفضل أن أكون سائقا .. المهم .. ما انتظمت أنفاسي وهدأ روعي .. حتى انتظرت في زهو وشموخ .. قلائد المديح والثناء التي ستطوق عنقي .. مصمت لحظات ولم يحدث ما أتوقعه .. سوى نفير العربات خلفي تهوي في جنون لأصبح لها الطريق .. وكان هذا آخر ما أفعله في حياتي .. واذا بسائق عربة أجرة يقف أمام باب العربة وينهال علي بسبابه كالمعهود من كل سائق سيارة .. تحليت عن مقعدي وأشرت الى جسد الأسطى شاي باصبعي ولم أنبس ببنت شفة .. والتفت نحو داخل العربة .. كان الجميع مشغولين عني بأنفسهم .. بكاء وتشنيج وضحكات وقهقهات هستيرية .. ورجال وسيدات وأطفال يتعانقون .. ومن حضر منهم يتداوى

الفصول كانت وجوههم الشاحبة التي زادها ضوء الغرفة اصفرارا تعود اليها الدماء بالتدريج .. ورغم مختلف التعليقات عما حدث فقد نسوني جميعا .. ومع ذلك كنت سعيدا بنسيي .. في داخلي فرحة تعمرني .. فقد كنت صاحب المعجزة التي حدثت .. أنا وحدي الذي أنقذت كل هؤلاء .. غمرت عيني عشاوة من الدمع وأنا أرقب كل هذه الانفعالات .. أحسست أني شيء ما .. لأني حققت حلم عمري وأصبحت بطلا .. وهؤلاء الذين نسوني لان كلا منهم كان مشغولا بنفسه ... لم ألمهم والتمست لهم العذر .. ان الصدمة أفقدتهم الرشد فلم يتنبهوا لايفائي حقي من الشكر .. وحتما سأنال حقي من تقدير الصحافة .. ستتحدث الجرائد عني بما يشبعني .. سأصبح شهيرا في ساعات .. صورتي منشورة في الصفحة الأولى .. هل أحطات في أمنيتي ؟ .. هل تلومونني لأني أبحث عن التقدير ؟ ..

كل ما في حاجة ملحة الى التقدير ولست وحدي .. في أعماقنا رغبة دفينة وظمأ دائم يلح علينا منذ طفولتنا حتى كهولتنا .. في كل أعمالنا نبحث عن الاهتمام بشيء ..

وقضيت ليلتي مع أحلامي الذهبية في انتظار الصباح .. وكما تعرفون .. لم يحدث شيء .. وكأن الجميع قد اتفقوا على ذلك . حتى اسمي أغفلوه وذكروا فقط اسم المرحوم الاسطى بشاي .. احتمعت كل الصحف على تجاهلي .. عشرات الركاب . النساء والأطفال .. الصبية والكهول .. كلهم نسوني .. لم ينشد على يدي أحد منهم .. لم تدمع أذني كلمة شكر من أحدهم .. والتمست لهم العذر .. ولكن رجال الصحافة . والصحف التي أهملت الخبر المثير . ما عذرهم ؟ .. لماذا تجاهلوني ؟ .. هل يوجد أشد اثارة مما حدث ؟ .. أكانوا ينتظرون حدوث مذبحة مروعة ؟ .. لتكتب أقلامهم عن عشرات القتلى والمصابين .. ممن تهشمت عظامهم وتبترت أعضاؤهم ؟

هل هذا هو الخبر الذي ينتظرونه ؟ .. حتى يملأوا أعمدتهم بما تهلع له القلوب وتبكي له النفوس .

لماذا نهتم بالموت فقط ولا نهتم بالحياة ؟ .. الحياة الحلوة التي كتبت للعشرات .. ولكل منهم قصة .. ولعل فيهم من سيذكره التاريخ .. وربما كان منهم أحد العباقرة الذي تفيد أبحاثه البشرية .. ولكنه في نظرهم شيء لا يثير الاهتمام .. لو تصادف وحدث أن ارتطمت قدم أحد الركاب والسيارة تتحرك .. أو حدث احتكاك مع راكب ما .. لقامت القيامة .. الصحف والاذاعة .. والكل يسلقوني بالسنة حداد .. ولأصبحت عدو الشعب رقم واحد .

وساءلت نفسي ما السر ؟ .. أهو الرحام العفيض الذي تلاقون منه العناء كل يوم في دهاليزكم وعودتكم مرتين أو أكثر يوميا؟ فهذه الدقائق التي تقضونها في الركوب تثير أعصابكم وتحملها سريعة الالتهاب .. فما بالكم بي وأنا أقضي ساعات طويلة كل يوم .. هل عمري بأكمله في هذا الرحام .. شاقا طريقي من مقدمة العربة لمؤخرتها . أفلسكم لا يقدم لي الا ورقات مالية .

واذا ما امهلت احدكم حتى يتجمع لى بقية نقوده .. ما تبقى لحظات حتى يعلو صوته صارخا مطالبا بالباقى ولو كان باقيا الكثير على محطة مروله .. ويجدها الفرصة مواتية يتحدث فيها مع من حوله عن تحايلى وسعة ذمتى وتراعينى فى الاختصاب .. وحكايات تروى وكأنى ارسين لوبين .. وسيف الاتهام معلق فوق رأسى دائما .

عذاركم لى اصطبغت تبرراته بزيه الاستخفاف .. أغلب العاطكم الموجهة لى حادة .. وفى استفزاز .. لأقل التماس تتجهم الوجوه وتلتهب الكلمات .. وتسيلم انى بشر مثلكم .. وان أعصابى تعلت منى ايضا .. انى لن ادعى انى ملاك معصوم من الخطأ .. انى أحيانا استحق هذه المعاملة منكم .. ولكنى غالبا أكون الضحية .. الكثير منكم لا يرى سوى يدى الممتدة لتعطيه التذاكر أو تتناول منه النقود .. وان القى أحدكم نظرة على قبلا اكتراث وفى شرود .. فقط تتفحصوننى بأبصاركم وترمقوننى بنظرات الغضب والنفور اذا حدث شىء مما تألفون .. ومع انى حاولت ولم أكف عن المحاولة أبدا فى ان اتقرب اليكم .. ابتسامتى بلا انقطاع .. الفاظى رقيقة غالبا .. سريع التجاوب مع من يحب المداعبة منكم .. واول من يضحك ولو كنت الهدف .. وحينما تشترك فى الضحك جميعا .. حينئذ اشعر انى واحد منكم .. واحبكم جميعا واود لو تبادلونى مشاعرى .. ولكن اعصابكم المرهفة وسرعة غضبكم .. وذلك الحاجز الخفى القائم بينا .. هو الحائل الذى يجعل التفاهم بيننا عسيرا .. هل تعرفون ذلك الحاجز الخفى ؟ انى اراهن بمرتب شهر على أن الغالبية العظمى منكم لن تعرفه .. فقط قلة منكم . أعرفهم من نظرة خاصة فى عيونهم .. من رقة الفاظهم ولن اللوم لايعرفه منكم .. فانا نسى مع انى قضيت اعواما طويلة فى هذه المهنة لم اعرف السر ، هذه الحادثة هى التى القت الضوء عليه وكانت السبب فى أننى عرفت .. السر فى تعاملكم جميعا معدى .. تعاطفكم مع اى واحد منكم ولو كان مخطئا، وحتى الذى يضيق بالخطأ لا يفعل شيئا سوى السكوت .. مع أن الساكت عن الحق شيطان اخرس ويشجعكم على أنكم لا تحتسبون اللوم فمن يلومكم ؟ .. وهو حق اكتسبته الجماعة .. وتشعرون بنفس اللذة التى يشعر بها أطفالنا حينما يقسون على صغير منهم ويضطهدونه بلا سبب .

وسيول من الخواطر تدفقت داخل رأسى .. الى أن استرجعت الفترة التى كنت فيها واحدا منكم .. حينما كنت أحد الركاب ، طبعا كنت واحدا منكم فى يوم ما .. أم لعلكم تظنون انى ولدت كمساريا وهذا اللقب الذى امتهنته البستكم .. السكة الحديد هى السبب فيه .. استوردته مع قاطراتها .. ودخل ضمن مفردات لغتنا .. ومن كومسير الى كمسارى .. واصلها مأمور .. مأمور شرطة .. مأمور قطار واعود بكم لتلك الحقبة من حياتى حينما كنت طالبا بالمدارس .. كانت سيارات الاتوبيس والترام ملك لشركات اجنبية ووحدت الشرير لان أتغافل عن دفع ثمن تذكرتى .. البست رجلا وطنيا .. وكان هذا رأى طالب زميل يكبرنى عمرا ، وفى بعض الاحيان لم تكن النية متوفرة لدى

فمن المذكرة في يدي ولكن الحصى لانهماكه في عمله يعمل عمي .. ولكن لا أنسى أبدا الجرح الذي كنت أحسه والقلق الذي يسيطر على طيلة ركوبي ، والخوف من الافتضاح .. وكان السبب في ذلك العناء الذي يكبد اعصابي الكثير هو الكمساري .. خشيتي من كلمة سخيفة منه .. من نظرة احتقار في عينيه أحيانا يحدث هذا الراكب بجواري .. ولم أعمر له .. وكان السبب في أني كرهت الكمساري وقتذاك .. ولماذا كرهته ؟ لأني كنت أخشاه .. أن يكشف حيلتي .. أن يفهم دناءتي .. في سبيل قرش واحد كنت أدفع هذا الثمن الباهظ من كرامتي .. وتقيت عليه .. ولكن كيف أرد لنفسي اعتبارها ؟ .. كيف انتقم منه ؟ ووجدت الفرصة مواتية لان أنكل به مع الجميع في اي خطاء يقع فيه .. وحتى اذا كان الخطأ من الراكب .. يكفي أن يصطدم بأحدنا .. حتى يجتمعا كلنا نحن الركاب شعور خفي بالتضامن مع زميلنا لانه نفس الرجل، وأظن أن أغلبنا حدث له هذا من فترة من عمره .. ويجدها مناسبة لان نمارس الشعور بالاستعلاء على الكمساري واحتقاره .. وعرفت السر في استعلائكم علي واحتقاركم اياي .. وضحكت لاني لست أنا من تحتقرون .. انكم تسخطون على أنفسكم ولا تعترفون بهذا .. وانا الضحية الذي احمل عنكم خطاياكم الصغيرة .. ورجال الصحف الذين تحاملوني .. اليسوا هم أيضا منكم ؟ من العجيب ان غيظي منكم وحقدي عليكم وضيقي بمعاملتكم كل هذه المشاعر تلاشت من نفسي .. وأصبحت السبيل لحب كبير لكم .. والم للمشاعر الخاطئة التي تحركم ، والآن هل أنت لكم صحة اتهامي، اني لاأقصد اتهامكم .. ولكن كل ما ابغيه أن يزول الحاجز الخفي الذي بيننا